ولكنه فقد صبره في أخريات أيامه، وفي أحرج الأوقات التي واجهها سيده، إذ هبّ كالمجنون فقتل سيده، واجتز رأسه في وقت كان سيده أحوج ما يكون إلى عونه.

ولكنه سرعان ما دفع حياته ثمناً لتهوره ونال جزاء خيانته من (حسن باشا الجزائري) أمير البحر الذي كان يحاصر (عكا)، ليستخلصها من يد (ظاهر).

إذ لم يكد يصل برأس (ظاهر) إلى (حسن باشا) وكان الرأس ملطخاً بالدم والتراب، حتى أمر (حسن باشا) بغسله وجعله على كرسي أمامه، وقد ظهرت على وجهه أمارات الغم والحزن، وجعل يفكر وهو مطرق إلى الأرض ويلعب بلحيته والدنكزلي واقف لا يجسر على الكلام، ثم رفع (حسن باشا) رأسه قليلاً والتفت إلى الدنكزلي وقال: من أي بلاد من المغرب أنت؟

قال: من توهرت

قال له: وما كانت صنعتك هناك؟

قال: كنت حطاباً

قال له: وكم سنة صار لك في خدمة (ظاهر)؟

أجابه: ما يزيد على أربعين سنة

فقال له: وكم كان دخلك منه؟

أجاب: كان دخلي في أول سني خدمتي عنده قليلاً، لكن لم يقل عن مائتي كيس لي ولاتباعي.

فقال له: تأكل خبز إنسان أربعين سنة، ودخلك منه بهذا المقدار، وتخضب سيفك بدمه؟ لينتقم اللّه مني، إذا كنت لا أنتقم منك لظاهر، ثم أمر من كان بحضرته، فخنقوه وصلبوه على ساري المركب.

عرفنا الخادم فمن المخدوم

هو ظاهر بن عمر بن زيدان الحسني، إذ يرتفع بأصوله إلى (بني زيد بن الحسين) رضي الله عنهما. وكان مسكن آبائه وأجداده في (المدينة المنورة)، إلا أن جده (زيدان) وصل إلى بادية الشام على رأس جماعة من بني أسد. ونزل في برية (معرة النعمان) بين حلب والشام ومن هناك توجهت العائلة جنوباً لتستوطن في (طبرية)، هرباً من تسلط بني أسد وجلافتهم، ثم ارتحلت عن (طبرية) إلى